الاحتفال بالحملة الفرنسية على مصر خيانة خيانة للوطن، والشعب، والتاريخ

نعم، الاحتفال بالحملة الفرنسية على مصر خيانة بكل المقاييس وليس مجرد «عار» كما وصفها بعض الأمناء الذين أثارتهم هذه الاحتفالات الساخرة البجاحة... أنها خيانة فى حق الوطن الذى إستباح المستعمر لنفسه أن يضربه بالمدافع ويهدّم دياره ويحرقها ويسرق محتوياتها ويدمر ما لم يمكنه سلبه ونهبه... وخيانة فى حق الشعب الذى استباح المستعمر الغازى لنفسه أن يسفك دماء الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال، وأن يقطّع الرؤوس ويطوف بها الشوارع والطرقات ترويعًا، وأن يغتصب النساء والفتيات ويبطش بهن حتى إشمأزت الجنود الغازية من تلك الأوامر العاتية الوحشية... وخيانة فى حق التاريخ، فالوثائق مازالت تنبض بدمائها الساخنة وتزخر بما يندى له الجبين وتثور له حمية الحجارة فما بالنا بالآدميين؟! وكل هذه الوثائق – إلا القليل النادر منها – كتبها نفس أعضاء هذه الحملة وكل من ساهم فيها، من الرأس المدبر لها حتى أخمص أقل جندى بها... فكيف نحتفل؟!.

أن أية حكومة، مهما كانت سذاجتها أو عدم خبرتها السياسية، لا يمكنها أن تجازف بإرسال جيش قوامه ستة وأربعون ألفًا من أبنائها المحاربين والمدنيين بزعم تحرير شعب ليس على حدودها ولا من دينها أو ملتها، أو حتى بزعم تنويره وتحديثه!! فما بالنا والحكومة المعنية هنا حكومة فرنسية محنّكة تجيد رسم الخطط وتوارث المخططات وتمارس الأستعمار بالفعل من قبل تاريخ الحملة بعدة قرون؟!.

والحملة الفرنسية على مصر كانت خطة مدروسة مدبرة مبيّتة فى كل صغيرة وكبيرة... بل كانت فى حقيقة الأمر – حملة صليبية إستعمارية بحتة

وبكل أبعاد هذه العبارة وتنوع مجالاتها... خطة بدأ التخطيط لها منذ فشل آخر حملة صليبية على بلاد الإسلام. وما أسهل تتبع ذلك فى كتابات الغرب ووثائقه، وما أسهل تتبع ذلك فى مختلف المراجع الفرنسية من كتابات المستشرقين والمبشرين والأدباء والرحالة ورجال السياسية الرسميين والخفيين منهم...

وعبارة «استعمار مصر» أو إضفاء صفة الاستعمار على الحملة الفرنسية ليس تجنيًا عليها وإنما قائلها هو نابليون شخصيًا، فى المذكرات التى كتبها عن هذه الحملة وهو فى معتقل جزيرة سانت هيلانه إذ كتب قائلاً عن تلك الفترة «سأستعمر مصر... سأستعمر مصر واستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين. إن ست سنوات تكفينى للذهاب إلى الهند لو سارت الأمور سيراً طيبًا».

ولا نعرف سلطة يمكنها التحدث عن هذه الحملة أكثر من ذلك الذى قادها وهو ملم ومدرك لكل صغيرة وكبيرة تتعلق بها.. وتحليل هذه العبارة وحده يكفى لنفهم منها إن الهدف هو إستعمار إستيطانى قائم على غرس التغريب والإنحلال، والوصول إلى الهند للأنتقام من النفوذ البريطانى. والوصول إلى الهند فى نظره كان سيتم عن طريق شق قناة السويس – ذلك المشروع الذى لم يتمكن من إنجازه وإنما بدأه السان سيمونيون الذين رأوا فيه هم أيضا «ضرورة دينية للربط بين القارات».. ويقول جان مارى كاريه عن رجال هذه الحملة الجديدة «أنهم سافروا بنفس الحماس الذى ينطلق به الصليبيون الجدد... لقد كانت فعلاً حملة صليبية جديدة، بدأتها فرنسا الجمهورية عام ١٧٩٧، وواصلتها بوعى وإدراك عام ١٨٣٣ «**رحالة وأدباء فرنسيين فى مصر**».

وليس أدل على أن تلك الحملة كانت حملة صليبية أساسًا، من تلك البيانات التى كان يكتبها نابليون ويبدأها بالتسلل الناعم لدرجة التخلى عن دينه، وينهيها بالوعيد والتهديد. ويكفى أن نقرأ بداية تلك البيانات: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه»! أى أنه كان

يبدأها بالتنكر للثالوث الذى ابتدعه كهنوت المسيحية عام ٣٢٥ مساوياً السيد المسيح بالله عز وجل، وينهيه قائلاً: «لكن الويل كل الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر»!!

ولم يكتف نابليون بذلك الخداع الرخيص وإنما كان يتّبع إجراءًا وحشيًا غير مسبوق، فمع مشرق كل يوم جديد كان يقتل فى القاهرة وحدها خمسة أو ستة أشخاص من طلبة الأزهر وعلمائه أو من المحرضين على مقاومة الغزاة، ويأمر بأن تعلق هذه الرؤوس على عصى طويلة ويطاف بها فى الشوارع. والقول هنا ليس للجبرتى وحده وإنما لنابليون أيضًا مع إختلاف الرقم، فها هو يكتب إلى زايونشك، قومندان المنوفية فى ٣٠ يوليو ١٧٩٨ قائلاً: يجب أن تعاملوا المسلمين بمنتهى القوة، وإنى هنا أقتل كل يوم ثلاثة أفراد يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة، فهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح»!

بل وفى عصر الواحد والعشرين من شهر أكتوبر ١٧٩٨ أمر باقتحام الجامع الأزهر، فقد ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وحرروا عليه المدافع والقنبر... وبعد هجمة من الليل دخل الافرنج المدينة كالسيل ومروا فى الأزقة والشوراع لا يوجد لهم ممانع... ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول. وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا الخيل بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها. وأحدثوا فيه وتغوطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه»! (**تاريخ الجبرتى**).

واحتلال مصر يعنى بالنسبة لفرنسا الحصول على قاعدة عسكرية تمكنها من السيطرة على ما جعلوه وأطلقوا عليه وصمة «العالم الثالث»... أى إنه يمكّنها من سهولة الوصول إلى الهند – انتقاماً من السلطات البريطانية التى طردتها لتوها من هناك، وفتح مجال التبشير والتجارة والإستيلاء على موارد تلك المنطقة، كما يمكنها من سهولة التوغل إلى أفريقيا لنفس السبب. وهو ما دعاها إلى احتلال المغرب والجزائر بعد ذلك وإن نافستها إيطاليا فى احتلال ليبيا.

وعبارة «العالم الثالث» هذه هى الصيغة المهذبة أو الملتوية لعبارة «تبعية استعمارية» فكيف نحتفل؟! كيف نحتفل بمستعمرينا وقاتلينا وناهبينا؟!

حتى ما يطلقون عليه «الجانب التنويرى للحملة» فى حين أنه حتى ذلك الجانب، بما فيه المطبعة التى جلبوها معهم، كانت لخدمة مصالحهم وطباعة منشوراتهم وطباعة الجرائد التى يتم من خلالها «نشر ثقافتهم وتغيير عادات وتقاليد المصريين» وهى عبارة وردت على لسان العديد منهم بدأً من نابليون وفيفان دينون وغيرهم؟ بل ها هو جان كلود فاتان J.Cl. Vatin يصف هذا الجانب الثقافى قائلاً: «أن الجانب الفنى والعلمى للحملة هو بمثابة محاولة لتغطية هزيمة معركة أبى قير ونصر البريطانيين، ونسيان موت كليبر وإستسلام مينو، والعودة المنهزمة للجيش الفرنسى، ولإضفاء نوع من الوقار على الهزائم والجرائم بالاكتشافات العلمية والفنية»!!

إن ما تقوم به فرنسا بهذه الاحتفالات المفروضة على الجانبين هى عملية تزييف كبرى: تزييف للتاريخ، وإهدار لدم الشهداء، وضياع لحق الوطن.

فبدلاً من المساهمة فى هذا التزييف، ليكن موقفنا أكثر أمانة وإحتراماً لهول وجلال الذكرى، وأن نجعل من تاريخ دخول الحملة مصر يوم حداد رسمى، لا تنكس فيه الأعلام فحسب، وإنما توظف خلاله وسائل الإعلام تنديداً بفظائعها وليس طمساً لمعالمها. وأن تقوم أقسام اللغة الفرنسية بكافة الجامعات المصرية إلى جانب كل ملم بهذه اللغة بدراسة وثائق هذه الحملة واستخلاص الحقائق الكامنة فيها.

وأن تقوم هيئة الآثار باسترجاع كل ما تم نهبه من آثار مصرية وإسلامية وقبطية ومخطوطات ووثائق نهبها رجال الحملة وكل من جاءوا قبلهم وبعدهم...

إتقوا الله فى هذا الوطن السليب وشعبه الجريح، وتاريخه المفترى عليه... ففى عام ١٩٩٢ أحتفل هنود أمريكا الجنوبية بذكرى مرور «خمسة قرون من المقاومة الهندية» فى مواجهة أحفاد كريستوفر كولومبس ودفاعًا عن هويتهم الإنسانية وعن ثقافتهم.. فهل نحن، أبناء حضارة هى مشعل الحضارات فى العالم، والأمناء على رسالة التوحيد الذين استخلفهم الله سبحانه وتعالى لعمارة الأرض، قد انهار انتماؤنا لوطننا ودیننا إلى هذا الحد؟!.

إن ضرب مصر واحتلالها كان بمثابة الضربة القاضية التى أتت على الامبراطورية العثمانية، وهو الذى سمح لكل من انجلترا وفرنسا أن يقوما بسلخها كالشاه، بعد الحرب العالمية الأولى، وتقاسم أجزائها للسيطرة على منابع البترول وإكتمل الثالوث الاستعمارى بانضمام الولايات الأمريكية...

فبأى منطق نحتفل؟! وبأى ضمير ننسى دم الشهداء؟!.

* * *